(١)

السماحة عقيدةً وسلوكًا

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلـهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَـهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه ورسوله القائل : (بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فقد جاء النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) برسالةٍ عالميةٍ جعلت من السماحة والتيسير منهج حياة ، فلا حرج في الدين ، ولا مشقة في التكليف ، ولا شدّةً ، ولا عُسْرًا ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) ، فالسماحة في الشريعة الإسلامية ليست كلمة تقال ، أو شعارًا يرفع ؛ إنما هي عقيدة يحيا بها المسلم ، ويجعلها منهج حياة ، كما أنها مبدأ من المبادئ التي أمر الحقُّ سبحانه عباده أن يتعاملوا بها فيما بينهم ، وجعلها سببًا لرضوانه ومغفرته ورحمته ، حيث يقول سبحانه: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} .

على أن الذي نسعى إليه هو أن تصبح السماحة سلوكا حياتيًّا ، لأن دعوة الإسلام إلى السماحة دعوة للتطبيق العملي ، حيثُ دعا الحق سبحانه عباده إلى العفو والتسامح في مواضع عديدة من كتابه الكريم ، فقال تعالى : {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} ، وطبق النبي (صلى الله عليه وسلم) السماحة تطبيقًا عمليًّا مع الناس ، فكان (صلى الله عليه وسلم) نعم القدوة لأمته وللإنسانية جمعاء ، حيثُ يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) ، وتقول أم المؤمنين السيدة عَائِشَةُ (رضي الله عنها) : (مَا خُيِّرَ رسول

الله (صلى الله عليه وسلم) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبَعْدَ النَّاسِ عَنْهُ...) .

والسؤال الذي ينبغي أن يطرحه كل منا على نفسه بمصارحة ومكاشفة : هل نحن نطبقُ هذه العقيدة في سلوكياتنا؟ هل جعلناها منهجًا للتعامل فيما بيننا وبين الناس جميعًا؟ فالسماحة سلوك نبيل ينبغي أن يطبقه المسلم في جميع مناحي الحياة ، ومن ذلك **السماحة بين الزوجين** : فالعلاقة الزوجية من أسمى العلاقات الإنسانية ، وهي آية من آيات الله تعالى ، وقد بين الله (عز وجل) أنها تقوم على المودة والرحمة وحسن العشرة ، قال تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} ، وقال سبحانه : {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيرًا} ، وقَالَ (جل شأنه) : {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} أي ، لهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذي عليهن من ذلك ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي) ، وكثيرًا ما أوصى (صلى الله عليه وسلم) بالنساء ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ) – وَلَا يَفْرَكْ : لَا يُبْغِضْ – وكان آخر ما أوصى به النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل وفاته النساء ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) .

فينبغي أن تكون السماحة سلوكًا متبادلاً بين الزوجين ، وقانونا إنسانيًّا ينظم الحياة ، وما أجمل ما قاله أبو الدرداء (رضي الله عنه) لزوجه (رضي الله عنها) : إذا رأيتني غضبت فرضني ، وإذا رأيتك غضبى رضيتك ، في تبادلية إنسانية قوامها العدل والسماحة معا .

* **السماحة مع الجيران** : حيثُ يقول الحق سبحانه : {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي

الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ} ، وما أكثر ما أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) بالجار ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ) ، قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : (الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) ؛ أي : شروره ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ) ، يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ وَجَارُهُ إِلَى جَنْبِهِ جَائِعٌ).

كما ينبغي أن تسود **السماحة بين الزملاء** في العمل ، وفي الجامعات ، وفي المدارس، و غير ذلك ، فقد وطد القرآن الكريم العلاقة بين الناس جميعًا ، حيث قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ، وكان (صلى الله عليه وسلم) أحسن الناس خلقًا مع الناس جميعًا ومع أصحابه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يحسن معاملتهم ، ويعود مريضهم ، ويتفقدهم ، ويتصدق على فقرائهم ، ويقضي ديونهم وحوائجهم ، ويصفح عن مخطئهم ، يقول الحق سبحانه وتعالى : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} .

وما أكثر المواقف التي تعامل فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) بالرفق والسماحة حتى مع أغلظ الناس قلوبا ، ومن ذلك ما كان من الأعرابي الذي جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَعْطِنِي ، فَإِنَّكَ لَا تُعْطِي مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ ، وَأَغْلَظَ لِلنَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَدَعَاهُ (صلى الله عليه وسلم) ،

فَدَخَلَ بَيْتَهُ ، فَأَعْطَاهُ ، فَقَالَ : (أَرَضِيتَ؟) ، قَالَ : لَا ، ثُمَّ أَعْطَاهُ أَيْضًا ، فَقَالَ : (أَرَضِيتَ؟)، قَالَ : لَا ، ثُمَّ أَعْطَاهُ الثَّالِثَةَ ، فَقَالَ : (أَرَضِيتَ؟) ، قَالَ : نَعَمْ ... .

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ، تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَ اللهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، إنما قَالَ: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ ، وَالتَّكْبِيرُ ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ) .

* **السماحة في الطرقات والمواصلات** : فالإنسان فيها قد يتعرض لأي أذى يقع عليه من غيره ، لأن الناس منهم الجافي ، ومنهم الغليظ ، ومنهم السمح ، ومنهم القوي ، ومنهم الضعيف ، ومنهم من يُحتمل ، ومنهم من لا يُحتمل ، وما أجمل أن يقابل الإنسان ذلك كله بحلم وسماحة ، فيكون رده بلين وأدب ، قال تعالى : {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ) ، كما ينبغي الالتزام بالضوابط المنظمة للطرق والمواصلات من إتاحة الأماكن للكبار والضعفاء ، والنساء ، ومراعاة مشاعر الناس ، والرفق بهم ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) .

* **ومن مظاهر السماحة سماحة النفس بالمال** : فالإنفاق دليل الإيمان بالله ورسوله ، ودليل صلاح المرء واستقامته ، به يُعرف المؤمنون ، وتتآلف القلوب ،

وبه ينال العبد البر ، قال تعالى : {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} ، فالإنفاق على الفقراء والمساكين يدل على سماحة النفس ومكارمها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ ، قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ) .

* وكذلك **السماحة في البيع والشراء والاقتضاء** : حيث يقول نبينا (صلي الله عليه وسلم): (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى) ، وعن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ (رضي الله عنه) ، قَالَ : بِعْتُ مِنَ النَّبِي (صلى الله عليه وسلم) بَكْرًا، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اقْضِنِي ثَمَنَ بَكْرِي ، فَقَالَ : أَجَلْ ، لاَ أَقْضِيكَهَا إِلاَّ لُجَيْنِيَّةً – أي: أعطيك الثمن دراهم جديدة ناصعة البياض – قَالَ : فقضاني فَأَحْسَنَ قضائي ، وَجَاءَهُ أعرابي ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : اقْضِنِي بَكْرِي ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) جَمَلاً قَدْ أَسَنَّ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا خَيْرٌ مِنْ بَكْرِي ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ خَيْرَ الْقَوْمِ خَيْرُهُمْ قَضَاءً) .

ولقد رغب النبيُّ (صلي الله عليه وسلم) في كل ما يحقق السماحة واليسر ، ويجسد معاني الأخوة الإنسانية ، والتآلف بين الناس ، كالتجاوز عن المعسرين ، أو إنظارهم ، قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (كَانَ رَجُلٌ يُدَاينُ النَّاسَ ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ : إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا ، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ) .

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلّ وسلمْ وَبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام :

إن من أعظم مظاهر السماحة ، وأيسرها ، السماحة بالكلمة الطيبة ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} ، ويقول تعالى : {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ، والكلمة الطيبة تكون مع الناس جميعًا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ومعتقداتهم ؛ وهذا إن دل فإنما يدل على حسن التربية ، وجميل الخلق ، وقد قيل: "حُسْنُ الخُلُقِ شَيْءٌ هَيّنٌ ؛ وَجْهٌ طَلِيقٌ ، وَكَلَامٌ لَيّنٌ" .

ولقد أمر الله تعالى سيدنا موسى وسيدنا هارون (عليهما السلام) أن يقول قولا طيبا لفرعون رغم كبره وعناده ، قال تعالى : {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} ، كما ينبغي الابتعاد عن كل لغو ، حيث يقول الحق سبحانه في صفات المؤمنين : {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} ، ويقول سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} ، ويقول سبحانه : {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) ، كما يجب الابتعاد عن كل ألوان الفحش في القول ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيْسَ بِاللَّعَّانِ ، وَلَا الطَّعَّانِ ، وَلَا الْفَاحِشِ ، وَلَا الْبَذِيءِ) .

إنَّ السماحة وسط بين نقيضين ؛ التشدد ، والتسيب ، وكلاهما تطرف بعيد عن منهج الإسلام الوسطي الذي شمل ضروبًا من التسامح والتيسير والرفق التي تقضي على كل صور التطرف والغلو ، والإفراط والتفريط .

اللهم ارزقنا السماحة في أقوالنا ، وأفعالنا ، ومعاملاتنا ، وكل شئوننا ، وأصلح ذات بيننا ، واحفظ بلادنا ، وسائر بلاد العالمين .